وكان للبكاء لونٌ آخر

قصة الجريح عبد العظيم حجازي

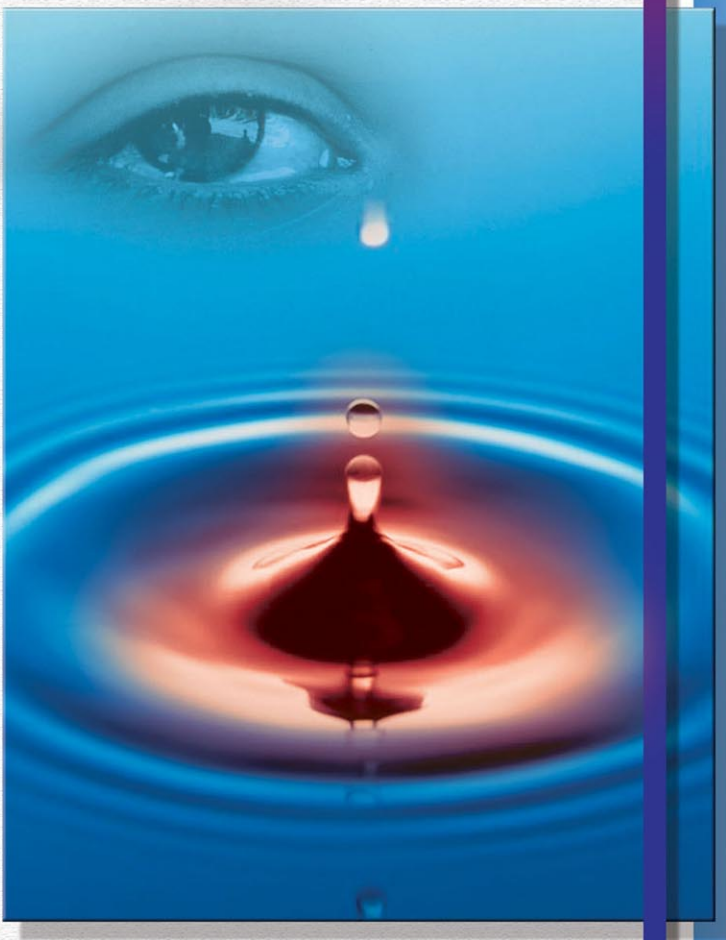

أمراء النصر والتحرير

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

وكان للبكاء لونٌ آخر

تأليف: عبد الله دهيني

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧

- **القصة**: وكان للبكاء لونٌ آخر.
- **قصة الجريح**: عبد العظيم حجازي.
- **الكاتب**: عبد اللّه دهيني.
- **الدرجة**: نالت الدرجة الأولى في المسابقة الثانية لأفضل قصة جريح التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب اللّه ومؤسسة الجرحى ورعتها بلدية برج البراجنة.
- **الناشر**: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة**: الاولى نيسان ٢٠٠٣م ـ صفر ١٤٢٤هـ. على نفقة بلدية برج البراجنة

الإهداء

عندما تغفو الجراح على صعيد الأرض
حالمة بالخلاص
يتوهج بريق الانتظار في القلوب
شوقاً إلى يومك الموعود...
بدموع الشوق.. ومداد الأمل
كتبت هذه السطور
فعسى أن أنضم إلى قافلة الجراح
أو يكون لبكائي لون آخر

الإهداء

«لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي ، ظاهرين
على الحقّ ، لعَدُوِّهِم قاهرين .
لا يَضُرُّهُم من خالفَهُم ، حتّى
يأتِيَهُم أمرُ اللهِ عَزَّ وجَلّ
قالوا : يا رسول اللهِ وأينَ هُم ؟
قال : بيتُ المَقدِس ، وأكنافُ بيتِ المَقدِس »
(كنز العمال)

ليس سهلا ان تكون في موقع المسؤولية، في الوقت الذي تكون فيه عاجزا عن القيام بما هو مطلوب منك، مهما كان سهلا، بل يفترض منك القيام به. في مثل هذه المواقف قد تحدث أشياء هي الى الخيال اقرب منها الى الحقيقة، وهذا ما تكتشفه فيما بعد، اي بعد ان تنجز المطلوب منك بنجاح، لتدرك ان ما أنجزته ماكان ليتم لولا مساعدة تلك القوة الخفية، التي التجأت اليها وانت في حال عجزك الكامل عن القيام باي عمل.

أفكار كثيرة تنتابك وانت تصارع القدر لاحبّاً بالحياة، ولكن للخلاص من وضع الترقب والانتظار للمجهول الآتي، لتفكر في كيفية مواجهته فيما لو اتى وانت في وضع العجز الذي تعيشه. ولكن من قال إنّ العجز لايخلق الدافع للبحث عن الحلول، لاسيما عندما تقف امام خيارات محدودة لاتجد غيرها مهما حاولت التفكير؟ ولم يكن الدافع هو اليأس ابدا رغم العجز، ولكن انعدام البدائل يفرض عليك حلولا قد يجدهاالآخر ناتجة عن اليأس، أو عن تشوش في الفكر نتيجة الوضع الراهن. ولكن في الحقيقة لم أكن في حياتي في حال من الصفاء الذِّهني كما كنت عليه في تلك اللحظات. حتى أن أشِّعة الشمس الحارقة، وشعوري بالظَّمأ الشديد لم يمنعاني من العودة قرونا الى الوراء، لاستحضر حكاية الرجل الذي رحل ظمآنا. وجعلتني

حال الصفاء الذهني تلك أفهم سرَّ الظمأ ودوره في تسهيل عملية الإتصال بالحبيب الذي ملأ جوارحي بنور البصيرة، والَّتي كنت في أمَسَّ الحاجة اليها بعد أن فقدت بصري. أذناي كانتا تتحسسان كل حركة مهما كانت خفيفة، وكفَّاي أصبحتا الوسيلة الوحيدة للتعرُّف على الأشياء من حولي، وللشعور بأَنَّني لاأزال على قيد الحياة. تذكُّري الرّجل الذي رحل ظمآنا جعلني أستهون الّذي أنا فيه، ودفعني في تلك اللّحظات الى البكاء لمصابه، ناسيا ظمأي وحالي الّتي أنا فيها، إنَّه من أسرار الظّمأ، وبكيته كثيرا. لم تكن المرة الأولى الّتي أبكيه فيها، ولكنَّها الأولى الّتي أبكيه فيها وأنا أشعر ولو بجزء بسيط من معاناته، لأجد أنَّني قريب منه كثيرا. ولم تكن الأخيرة طبعا، فكلَّما سمعت قصة مصابه في ذكراه الّتي تتجدَّد كل عام، اصبحت أبكيه وأنا أعيش تلك اللحظات التي مرَّت عليّ، فمنذ ذلك الحين كان للبكاء لون آخر. ولم أدرِ إن كانت هناك دموع أم لا، فعين مزَّقتها الشَّظايا، والأخرى خرجت من مكانها والتصقت بخدي، هذا ماكتشفته عندما حاولت مسح الدم والتراب عن وجهي. لم تكن هناك دموع ولكني أستطيع التأكيد بأني بكيت بدل الدّموع دما. وكان هذا جوابا على سؤال حيرني منذ قرأت كلمة الرجل الغائب (لأبكين عليك بدل الدموع دما).

ماتبقى لديَّ من الماء قليل جدا، وساخن بسبب حرارة الشمس، وهو لن يكفيني طبعا، لذا كان علي أن أكتفي بقطرات منه في كل جرعة، ولم تكن عملية الشُّرب لذيذة، بل كانت مؤلمة، لاحتراق شفتيّ. ومع ذلك كنت أشعر بأنَّني أفضل حالاً من ذلك الَّذي رحل دون أن يتذوق منه قطرة واحدة. فالماء موجود لديَّ رغم قلَّته وسخونته، لذا لايمكنني أن أقارن نفسي به، لأنه اختار الطريق الأصعب مع وجود أكثر من خيار لديه، اما أنا فلم يكن لديّ خيار آخر، وإن وجد فلن أختار سوى الأسهل، وليس أمامي الآن سوى التّواصل معه بدمي الذي يسيل بدل الدموع فعسى أن أصل الى القليل القليل من الكثير الَّذي كان لديه في ذلك اليوم الذي يستحيل نسيانه مهما مر الزَّمن.

إتَّصالي بذلك الّذي رحل ظمآناً، خلق لديَّ الكثير من الحلول للخلاص من الوضع الذي أنا فيه، فاستطعت أن أخلق من عجزي قوة. وتحولت حال التَّرقب والإنتظار الى خطة عمل متكاملة ولَّدتها الظّروف، لذلك عندما توقعت مجيء أذناب الأفعى بعد سماعهم صوت انفجار اللُّغم، كنت جاهزا للتَّعامل معهم بما يناسب، فأنا أمام خيارين لاثالث لهما، إما الأسر أو الرَّحيل، واخترت الحلَّ الثَّاني وبالطريقة التي أريدها أنا. أليس هذا ماتعلَّمناه من ذلك الرَّجل والعمالقة

الّذين سبقوه والّذين لحقوا به؟ أن نصنع نحن طريقة رحيلنا؟ وأن لانستسلم، فالإستسلام ذلّ؟ وتعلّمناه جميعاً من الّذي رحل ظامئا(وإذا لم يكن من الموت بدٌّ، فمن العار أن تموت جبانا). يالها من مدرسة تلك الّتي أسّسها ولازلنا نحن الذين تتلمذنا فيها نسير على خطاه، فهو لم يقل كلمة واحدة لعصره فقط، بل إنّ كلامَه كلَه بقي خالدا، تتناقله الأجيال وتعمل به لأنّه يصلح لكلِّ زمانٍ ومكان. وهكذا أصبح للإنتظار والترقب معنى جديد، وبدلا من أن أكون عاجزا أنتظر ماسيحدث لي، أصبحت قويا أنتظر ماسأفعله أنا بهم فيما لو جاؤوا، وأصبحت حال الترقب والانتظار كمينا.

كان علي بعد فقدي بصري أن أرهف السمع، وأن أبحث عن مخبأ أنتظرهم فيه كي لايروني، كذلك دفعتني حرارة الشمس القوية إلى البحث عن ظل أستظل به، ولم يكن أمامي كي لايكتشفوا مكاني سوى الزحف وتلمس الأشياء من حولي، يساعدني في ذلك بقايا صورة للمكان الذي دخلناه قبل انفجار اللُّغم لازلت أتذكر بعض تفاصيلها. وزحفت للمرة الثانية، ولكن هذه المرة لوحدي، فالمرة الاولى زحفنا أنا ورفيقي كمحاولة منا للخروج من المأزق الذي وقعنا فيه، زحفنا لمدة ساعة، ولكن دون جدوى رغم أنّه لم يفقد بصره، ولكن لم أعُد أسمع صوته، رغم نداءاتي المتكررة له. وكان

علي التّصرُف بحذر تجنبا لخطرين يُحدقان بي، خطر الألغام، وخطر اكتشافي من الموقع المطل مباشرة على المكان الّذي كنا فيه، وكلاهما خاضعان لتلك القوة الغيبية الّتي كنت أحس بتدخلها من البداية، منذ لعبت الصدفة دورها وشاركت في هذه المهمة بدلا من الشخص المكلَّف بها أصلا والذي تأخر لأسباب قاهرة، بعد أن كنت أوقفت كل نشاطاتي لأتفرغ لآستقبال المولود الجديد الذي كان سيطل على هذه الدنيا بعد أيام، وكان عليَّ أن أكون إلى جانب زوجتي ساعة الوضع، لولا أن تأخر المكلف بالمهمة، فانتدبت لها بدلا منه. وعلمت لحظة انطلاقنا أنَّ زوجتي على وشك الولادة، وخُيِّرت بين الأَستمرار أو العودة، ولكنَّ الأَستخارة حسمت الموقف لصالح الأمر الأول. وكنت أشعر باطمئنان قوي، واندفاع أقوى لإتمام المهمة التي انتدبت لها.

ماعتدنا في عملنا ترك الصدف تقرر مصيرنا، ولكنها قد تفرض نفسها أحيانا، ولم نكن نتذمر من تدخلها، فللقوة الغيبية الّتي تسيرنا حكمتها البالغة في التحكم بنتائج الامور (عسى أن تكرهوا شيئاً...)، ولم نكن راضين بما جرى لنا فحسب، بل كنا نشعر بالسعادة لأن تلك القوة اختارتنا دون غيرنا فداءً للمجموعة التي ستلحق بنا، لتكمن في المكان نفسه.

كنت أعلم أنَّ تلك القوة الخفية لن تتخلى عني، وهذا

مالمسته فيما بعد خلال ذلك النهارالصيفي شديد الحرارة. لقد زوَّدتني بإصرار كبير لم يستطع فقداني لبصري أن يضعفه ولو للحظة واحدة، ساعدني على ذلك حضور الرجل الذي رحل ظمآنا حيث ازددت رغبة باللحاق به، حتى أنني بدأت أسمع صوت الحادي ورغاء الأَبل، وقررت اللِّحاق بتلك القافلة التي سبقني إليها الكثيرون. لذلك لم أستسلم أبداً، بل رحت أستمد من حكايته، وحكايات أتباعه ما يعينني على اتخاذ القرار المناسب، وجعلتني حالي أمام واحد من أولئك العمالقة الذين تتلمذوا على يد صاحب المسجد، ذاك الازدي يوم نضى سيفه ليواجه جيشاً جراراً، رغم فقده لعينيه الإثنتين، وبعد طول انتظار لتحقيق الحلم الّذي كاد ييأس من تحقيقه وقف يسجل على صفحات التاريخ سطوراً جديدة، ويطبق مماتعلمه من أستاذه دروسا رائعة في الوقوف بوجه الطغاة ايّاً كانوا وأيّاً كانت النتائج، لاسيما في وقت كان فيه الجميع يعيشون رعبا كبيرا، وكان أيّ احتجاج يؤدي إلى الموت. وكان يعلم أنه يمارس أفضل الجهاد، فكل تلامذة صاحب المسجد، الذين آمنوا به عن قناعة تامة، سجَّلوا للتاريخ مثل هذه المواقف. وساءلت نفسي (ولماذا لا أصنع مثله؟ وما الفرق بيني وبينه؟ ألسنا أنا وهو نحمل الولاء المطلق نفسه؟ ألسنا تلاميذ في مدرسة واحدة؟).

جهزت القنابل اليدوية وانا أردد أرجوزته الشهيرة (والله لو يكشف لي عن بصري....) ، وكما دفعه الشوق الى أستاذه، دفعني شوقي الى أستاذي ومعلمي، ذلك الرجل الذي رحل مع زوجته وطفله، كم كان دعاؤه يتردد في خاطري (اللهم أمتني ميتة....)، وأضاء الحلم ضميري، بل أحسست بي أخطو تلك الخطوات السريعة نحو تحقيق ماتشتاقه النفس، وتحنُّ اليه الروح (وما أولهني الى الّذين مضوا قبلي..)، رحل مطمئنا الى أنَّ هناك من سيطبق وصيته الأساس.

لم يكن الزحف سهلا في حقل من الألغام المتربصة بي وأنا، في حالة لاأستطيع خلالها التمييز بين الحجر واللُّغم إلا باللمس، ولمسة خاطئة قد تزيد الأمور تعقيدا، أو تتسبب بالرحيل. ولست جبانا، ولكنَّ الفرق كبير بين أن ينقلني اللُّغم الى العالم الآخر، وبين أن أصنع أنا طريقة رحيلي وفق الخطة الّتي وضعتها، وكان بقائي حيا ونجاتي من اللُّغم بصيص أمل بنجاح خطتي، وإن لم يكن سهلاً للحالة الّتي كنت فيها. هي فقط عشرون متراً، وشعرت بالعجز عن مواصلة الزحف، ثم عثرت على صديقي، وفرحت رغم أنه لم يشعر بي عندما لمسته. وازددت يقيناً برحيله، بعد أن تصورت صمته إغماءً بسبب الجراح والظمأ. لقد انضمَّ إلى قافلة الّذين رحلوا ظامئين، ليشاركوا الظمآن الأول مسيرته، وليترع الآتون

بعدهم كأس النصر والتحرير. هنيئاً لك ياصديقي، (فقد استرحت من همّ الدّنيا وغمّها).

لماذا ياصديقي؟! لماذا رحلت بدوني؟! هل سأعود لوحدي؟! ألم نتفق على الرحيل أو العودة سويّة؟ولماذا لم تخبرني أنَّك بلا يد ولاساق؟ أليس من واجبي أن أشاركك الألم؟ ألم تكن تتألم لأجلي وأنت تراني بلا عينين والدم يملأ وجهي؟ لم أكن أعلم أنَّه رحل منذ اللحظة الّتي صمت فيها، وعندما لم يعد يردّ على نداءاتي المتكررة، ظننته أغمي عليه من العطش، لم أكن أتصور أنَّه قد رحل نتيجة النَّزف الشديد. لقد رحل بصمت، لم يخبرني، لم يشأ أن يثير أحزاني. لماذا ياصديقي؟ ألم نتعلَّم ان نكون أقوى من الحزن؟ أتحزن لأجلي ولا أحزن لأجلك؟ ألم نتعلم أن نكون أقوى من الأزمات؟... ولمّا لم تنفع محاولاتي لإيقاظه، إزددت اقتناعاً برحيله.

عدت أتلمَّس طريقي بين الصخور والألغام التي زرعها الجبناء، ليثبتوا مرة أخرى عجزهم عن مقاتلتنا وجها لوجه، فعثرت على مقربة من صديقي على الجهاز اللاسلكي مرميا، ولم أفرح بعثوري عليه، فقد حاول صديقي تشغيله ولكنَّه كان قد تحطم بفعل الإنفجار الذي أطاح به بعيداً من يده. وكي لايكون شوقي للرحيل يأساً، فقد حاولت تشغيله، للإتصال بالآخرين الذين سيكونون متلهفين لمعرفة مايجري.

ومرة أخرى تتدخل القوة الغيبية الّتي لم تتخلَّ عنّي، أو بالأحرى عنّا، فمنذ بداية هذه المسيرة ونحن نشعر بمساعدتها لنا في تحرُّكنا كلِّه، وبشتى الوسائل الّتي قد لاتخطر على بال أحد، والتي تقرب من المعجزة في معظم الأحيان، ولست أبالغ في كلامي، فبعد أن ينتهي الموقف، ويفكر الواحد منّا بهدوء واسترخاء، يتيقّن باستحالة حدوث ما حدث لولا تدخّل تلك القوة الخفية، والشواهد على ذلك كثيرة. فتارةً يتساقط الثلج فجأة ليتوقّف نزف جريح، وأخرى يتكاثف الضباب أو يزداد هطول المطر ليخفي تسلّلاً أو يستر تحرّكاً أو كميناً، ومرةً يزداد الرعد ليخفي اصواتاً، والبرق في ليلة ليلاء لينير طريقاً، وهي أمور طبيعية، ولكنَّ التّدخّل يبرز واضحاً، عندما تأتي هذه التّغيّرات بطريقة مفاجئة، وعلى غير توقّع، بل يكون احتمال حدوثها بعيداً جداً. وهذه المرة وبسبب حرارة الشمس وبحثي عن شجرة أو صخرة أستظل بها، عثرت على الجهاز. وقد يحسبها احدنا امراً طبيعيا، ولكن مع الإلتفات إلى الوقت، وحجم الجهاز الصغير مقارنة بتلك الفلاة الواسعة، لاأجد مفراً من الإعتقاد بأنَّ هناك تدخّلاً، لاسيّما ماحدث بعد عثوري عليه من نجاح محاولاتي لتشغيله، مع كونه شبه محطم، وهكذا تأمَّنت الوسيلة الوحيدة للتواصل مع الآخرين الّذين لم يكونوا بعيدين عنّي.

الله أكبـر.. وتردد الوديان صدى ذلك الصوت المحبَّب إلى النفس.. وتشعر بالإطمئنان يملأ خلايا الروح.

الله أكبر.. ويكبر الأمل في الأعماق.. وتشعر كم هو قريب منك.. وإنَّك على تواصل بطريقة لم تعرفها من قبل.

الله أكبـر.. وتصغـر الأشـياء في تلك اللحظات.. وتتصاغر الجبابرة.. وتمَّحي كلُّ القوى.. ويبقى وحده أقوى وأعظم.. فتهون كلُّ المصائب، وتصغر العظائم.. وتتلاشى كلُّ معيقات السعي إليه.

الله أكبـر.. وتتنزل السكينة على روحك.. نزول الماء الزلال على جوف الظمآن.. فتهدأ ثائرة الروح.. ويزول القلق.. وتستسلم بكلَّ جوارحك للقوة الأعظم في الوجود.

الله أكبـر.. إنَّه نداء الواجب الذي ارتبطت به منذ صغري، ولم أتخلَّ عنه في أحلك الظروف، ولن أتخلى عنه حتى وأنا في هذه الحالة. بل إنني كنت بعد سماع النداء بأمَسِّ الحاجة إلى ذلك التواصل بيني وبينه، وبشوق لاكتشاف الجديد في تلك العملية طالما أنَّ لكلَّ شيء معنى جديداً في هذا المكان.

وعفَّرت جبيني بذلك التراب الزكية رائحته، وتنشقت فيه عبق التّاريخ، وعرق الاجداد، ودم الشهداء. واكتشفت سرَّ قدسية ذلك التراب، الّذي تدوسه الأقدام أحيانا،

ونعفِّر به جباهنا بدل الوضوء أحيانا أخرى، وسيكون ستراً لنا بعد مماتنا لينقلنا إلى عالم آخر كما ينقلنا إلى عالم الصلاة حال التيمم. لقد كان صعيداً طيباً، تشمُّ فيه رائحة العشق المتبادل بين هذه الأرض وأهلها الطيبين، وعبير الكرامة والإباء، الّذي صنعه الأجداد منذ قرون وتركوه أمانة في أعناقنا.

لم أفكر لحظة واحدة بتأجيل تلك الصلاة، رغم الوضع الذي كنت فيه، وزادني شوقاً الى أدائها احتمال أن تكون الأخيرة، كما كانت صلاته الأخيرة مع من تبقى من أهل بيته وأصحابه قبل أن يرحل ظمآنا، فللصلاة في هذا المكان، وفي الوضع الّذي أنا فيه معنى آخر. ومهما كانت الأسباب فلن أحرم روحي من التحليق في عالم المطلق، وسأأتم به، فلن أجد أفضل منه إماما، سأأتم به وبأبيه الذي (مات والصلاة بين شفتيه)، والذي لم يتركها حتى في أحلك الظروف، ولم تمنعه حتى الحرب السجال من الانسحاب الى مكان قصي للقاء الحبيب، وهو القائد، (أفي هذا الوقت يامولاي؟... إذن علام نقاتلهم؟)، مأروعها من إجابة، وما أعظمها من مدرسة، تلك التي تعطي تجسيداً لمعنى الصلاة الحقيقي، معنى جديدا يخرجها من إطارها التقليدي المحصور بالحركة فقط، فليس غريبا إذن أن يموت والصلاة بين شفتيه. وليس غريبا أن يقف ولده بعد

سنين، غير عابىء بالخطر الّذي يتهدده، لتكون الصلاة آخر عمل يقوم به في حياته. لقد علَّمتني تلك الصلاة معنى الإقتداء، لاسَّيما إذا كان المقتدى بهم بهذه العظمة.

رغم أنَّني بدأت الصلاة منذ صغري، ولم أتكاسل عنها حتى خلال اللحظات الصعبة التي كانت تمرُّ علينا، إلا أنَّني لم أصَلِّ في حياتي صلاة كهذه، لم أعش يوما أحاسيس مشابهة لأحاسيسي في هذا اليوم، ولم أشعر بارتباطي بهذه الأرض، وعمق جذور هذا الإرتباط كما شعرت به أثناء سجودي في هذا المكان.

سبحان ربي الأعلى.. ويجتاحك التواضع أمام ذلك العلُوِّ الّذي تسعى نفوس العاشقين للسمُوِّ إليه، العلُوّ الّذي يرفعك إليه بكلِّ حب. كم نحن مقصرون في فهم تلك المعاني الكبيرة لحركات نؤديها لنشعر بالراحة بعد الإنتهاء منها وكأنَّنا نزيح همّاً ثقيلاً ملقى على عواتقنا، ثم نبتعد عنه بينما هو قريب منّا إلى حدِّ سماع السرِّ والنجوى.

وقادني ذلك إلى التساؤل بعد انتهاء الصلاة، لماذا لانعيش هذه الأحاسيس دائما؟ هل السَّبب عالمنا الماديُّ الّذي سيطر علينا فصنع حاجزا بيننا وبينه؟ وهل على كلِّ من يريد عيش هذه الأحاسيس أن يصاب مثلي؟ المهم أنَّني توصلت إلى حقيقة واحدة، إنَّ كُلاً منّا مرَّ بما

جعله يشعر بقربه منه، ولكن من طبع الإنسان النسيان.

لم يأت أذناب الأفاعي، لقد ظنّوا حيواناً شارداً داس على أحد الألغام، هكذا سمعهم الآخرون يتحدثون عبر الأجهزة. لقد أقنعوا أنفسهم بذلك خوف المواجهة، فهم طيلة فترة تواجدهم لم يفكروا يوماً بقتالنا وجها لوجه، لم يأتوا، ولم يتحقق حلمي بالإلتحاق بالقافلة التي سبقني إليها (عسكري). ومرت ساعات صعبة من الإنتظار، وكنا أنا وهو لوحدنا، كنت أشعر بحضوره معي، هل هي روحه التي كانت إلى جانبي تؤنسني؟ أليس في اعتقادنا أنّ الروح لاتفارق الجسد؟ لم أكن خائفاً، فبعد الصلاة التي أدّيتها ثلاث مرات، إلى ثلاث جهات لعدم قدرتي على تحديد اتجاه القبلة، وفي كل مرة كنت أشعر أنني في الإتجاه الصحيح...(حيثما تولو وجوهكم فثم وجه....)، وكنت أشعر بحضور ذلك الوجه الرحيم إلى جانبي فأزداد قوة وعزيمة وإرادة، حتى تأكد لديّ أنّني المسيطر على الوضع، وأنّ قرار حسم الأمور أصبح بيدي أنا، رغم الظروف التي كنت فيها.

إكتشفت أنه لم يكن بيني وبين (عسكري) سوى أربعة أمتار، عندما زحفت أبحث عن ظلٍ يحميني من حرارة الشمس، وتلاشت المسافة بيني وبينه عندما لمسته، ولم أشعر ببعدي عنه رغم العشرين متراً الّتي فصلت بيننا عندما واصلت زحفي في محاولة أخيرة للخلاص، ولم

اتجاوز ذلك لعجزي عن مواصلة الزحف. كان عجزاً لم يستطع أن يوهن عزيمتي وإيماني وإصراري على المواجهة فيما لو أتوا. حتى تذكري لزوجتي التي تركتها على وشك الوضع، دون وجود أحد من أهلي أو أهلها إلى جانبها. ففي عملنا لاوجود للتردد، ولست وحدي من يستغل الظروف لتغيير خطته، ولكن نحو الأفضل. ولم يكن رجوعنا إلى الإستخارة في بعض الأحيان تردداً أو خوفاً، بقدر ما هي لإقناع أولي الأمر عندما يحاولون منعنا من المشاركة في تنفيذ بعض المهمات خشية إحراجنا، كما حدث معي عندما اكتشفوا أن زوجتي على وشك الوضع، وخيروني بين الرجوع أو المتابعة، فحسمت الإستخارة الأمر. ولم نكن نندم مهما كانت النتائج لإيماننا المطلق بحكمة تلك القوة الخفية الّتي لم تتخلّ عنا أبداً. حتى في ذلك اليوم الّذي قررت فيه إحدى المجموعات الإنسحاب لفشل خطتها، قرر أحد عناصرها البقاء والمواجهة، وبعد تداول الأمر قرر اللجوء إلى الإستخارة، وتلقى الأمر المباشر بالبقاء، والتحق بالقافلة بعد أن أمن انسحاب المجموعة بسلام. وكان لتلك العملية أثرها الكبير في زرع الرعب في قلوب الأفاعي، عندما واجههم لوحده. هذا العملاق وغيره كانوا نماذج نعايشها باستمرار، لتبقى قواعد اللعبة كما نريدها نحن لا كما يريدها الأفاعي وأذنابهم، وكنا

ننتصر عليهم دائماً، رغم الأسلحة المتطورة الموجودة لديهم، وتغييرهم لخططهم بين الحين والآخر، ذلك التغيير الّذي لم يكن يصمد طويلاً، حتى يكتشف من قبلنا، لتعود قواعد اللعبة بأيدينا من جديد.

لم تكن تفيدهم محاولاتهم الدؤوبة تلك لمواجهة ضرباتنا المتلاحقة، ولم تكن تضعفنا، طالما أن ذلك الّذي رحل ظمآناً يعيش في أعماقنا هو وحفيده الغائب، وهذا ماوعيناه نحن منذ البداية، ولم يفهموه هم إلا متأخرين، فشهدوا انتصارنا عليهم، وشهدنا هزيمتهم التي كانت تحدث لأول مرة منذ تأسيس دولتهم المزيفة المبنية على الباطل.

لم أكن قد فقدت الأمل بتحقيق الحلم، فما زلت موجودا في ذلك المكان، كان الإحتمال لايزال وارداً، وكنت أنتظر بفارغ الصبر أن يتحقق. ولم يكن الإنتظار مملاً كعادته في الحالات الأخرى، فقد اعتدنا هذا الإنتظار خلال عملنا. فكم كنّا ننتظر أياماً ولياليَ، كامنين متخفين خلف الصخور، لنرصد تحركاتهم، وكم كنا نترجم انتظارنا هذا إلى حركة نشطة، للإستفادة قدر الأمكان من فرصة وجودنا في الداخل، والأمور بعواقبها، والعواقب دائماً إلى جانبنا. هكذا تعلمنا الصبر والإنتظار، ونحن الواثقين بأن الوقت لصالحنا. ألسنا بانتظار الغائب منذ قرون؟ وخلال تلك القرون لم يكن

انتظارنا لظهوره انتظار اليأس أو الخنوع، بل استطعنا ترجمته إلى حركة دائمة التهيئة لإستقباله. وقد علّمنا ذلك الإنتظار الصبر والعمل بهدوء، والحكمة في حلول المشاكل الّتي تواجهنا. كما منحنا الأمل، فما أروع أن تعمل وأنت متيقن من وجود من يراقب عملك، ويباركه، ويسدد خطاك. أليس في هذا كل الإطمئنان إلى أنّك تسير في الإتجاه الصحيح؟ لاسيما وأنّه من تلك السُّلالة الّتي كانت ولاتزال خير قدوة لنا في كل أعمالنا .لقد كنا نشعر بوجوده دائماً بيننا، وتدخله في آخر لحظة، لإنجاح الكثير من الخطط المهددة بالفشل، وحتى لو حدث مرة وفشلت إحدى خططنا، فقد كان صبرنا الّذي استلهمناه وتعلّمناه من انتظارنا له يدفعنا إلى المزيد من الإصرار والتّصميم على إعادة الكَرَّة. وكان مايبعث على الإطمئنان قناعتنا بأنّنا إنما نقوم بواجبنا المفروض علينا القيام به وليكن مايكون، طالما أنَّ مانقوم به لابد وأن يثمر يوما، مهما طال الزمن. ونحن الّذين نعمل في بقعة محصورة من الأرض، نعتبر أنفسنا جزءاً صغيراً من حركته الّتي ستشمل الأرض كلها، لأنّه وحده القادر على الإمساك بكل خيوط اللعبة، وتغيير قواعدها، لمصلحة حركته الشاملة للزمان والمكان.

إذن كان الوقت وزمن الإنتظار الذّي نعيشه، دروساً لنا في الإستمرار، واللعب بهدوء وصبر وحكمة لبلوغ الهدف

الّذي أردناه، ومازلنا نريده، بل ازدادت رغبتنا به بعد مالمسناه من قرب موعد تحقيق النصر الّذي نعمل لتحقيقه. وحتى لو تحقق فإنّ اللعبة لن تتوقف، فلازال أمامنا هدف أكبر، هو الّذي سيكون نقطة الإنطلاق الأساس لكل ماقمنا ونقوم به.

كلّ هذا مرَّ في خاطري وأنا أنتظر مرهف السّمع، وقد ساعد هذا التفكير في شحذ معنوياتي، وإقتناعي بصوابية ماأنوي القيام به، وأعطى لإنتظاري معنى جديداً وجميلاً، فيه الإستعداد للمشاركة في حركته الشّاملة، بل أعطاه الإستمرارية حتى اليوم، وسيبقى معي حتى نهاية عمري، وربما بعد رحيلي. لقد علمني أحد العمالقة الّذين سبقونا (أبو موسى) يوم زارني في المنام بعد هذا اليوم بسنين، واصطحبني معه إلى قبره لأساعده في حمل أسلحة وذخائر، وبعد نزوله إلى القبر، طلب منّي أن أناوله السلاح والذخيرة، وعندما سألته عمَّا سيفعله بذلك السلاح في القبر، أجابني بأنه سيخبئه إلى حين ظهور الغائب ليشارك معه في حركته. أليس هذا الحلم درساً جديداً لي في معنى الإنتظار؟ لاسيما وأنّه صدر ممن (كشف عنهم غطاؤهم فبصرهم اليوم حديد).

لم يأت أولاد الأفاعي، ولم يتحقق حلمي، وكان علي أن أعود إلى حياتي الماضية الّتي انسلخت عنها لساعات،

ولكنها لم تكن هي نفسها كما كانت في السابق، ولن تعود كما كانت أبدا، هل حدث وجربت أن تكون شهيداً حياً؟ إنّ من أطلق هذه التسمية الّتي لم أكن أفهم ماتحمله من معان رائعة قبل هذا اليوم الّذي كنت فيه قاب قوسين أو أدنى من الشهادة،حريٌّ بالإجلال. ولست أبالغ إذا ماقلت إنني قد عدت في ذلك اليوم وأنا أحمل في أعماقي إحساسي بالشهادة، وكأنّ هذا الوسام الّذي حملته فيما بعد، يذكرني دائماً بالتغيير الفعلي الّذي طرأ على حياتي. لقد تعلمت في تلك الساعات التي مرَّت علي دروساً بالغة الأثر في الربط بين الماضي والحاضر. فكما نقلتني عبر الزمان والمكان لأعيش ماحدث منذ قرون، رسمت كذلك طريقاً جديداً لمستقبلي، وتفكيراً جديدا، رسَّخ مفاهيم، وأزال أخرى. وأستطيع القول إنني تجاوزت مرحلة الشهادة، وهذا شيء لم أكن لأشعر به لولا تلك التجربة الّتي مررت بها. فأن تجرح، وتتأهب لساعات بانتظار الحلم بالرحيل، فإنك تعيش فعلاً حقيقة الرحيل، بل تشعر وكأنك رحلت فعلا، وعندما لايتحقق الحلم تشعر أنّك عدت من جديد إلى الحياة، أو أنك بعثت، أو ولدت من جديد، ولكن بمفاهيم جديدة، بعد أن تكون قد خضت تجربة الشهادة. وأصبحت أشعر بالفرح والسّعادة الشديدين، كلما شاركت في وداع أحد العمالقة الراحلين، الملتحقين

بالقافلة، رغم بكاء الجميع من حولي، لأنّه استطاع تحقيق ماعجزت أنا عن تحقيقه، ولأنّني قد أكون الوحيد الّذي يتواصل معه في تلك اللحظات، ويفهم حقيقة مشاعره هو الآخر. وربما كان هذا التواصل بيني وبين (أبو موسى) هو ماجعله يختارني من دون الجميع ليطلعني على سرِّه الكبير، سرٍّ انتظاره للغائب في العالم الآخر، وإمكانية المشاركة معه حتى لو كنا تحت التراب. لقد جعلني أعيش ذلك السرَّ وكأنّني أراه حقيقة، يخرج من قبره، شاهراً رشّاشه، مشاركاً بتحقيق ذلك الحلم الكبير الّذي ننتظره منذ قرون.

كلّ شيء له بداية، لابدّ له من نهاية، فالميلاد بداية والموت نهاية حتمية لكلّ من يولد، ولايستطيع أيّ منّا أن يصنع قدره، أو يغير نهايته. في وضعي كانت النهاية هي الخلاص مما كنت أعانيه ، ولكنني لم أعتبرها نهايةً أبدا، بل كانت البداية لعمر جديد كتب عليَّ أن أعيشه وأتاقلم معه طالما أنني اعتبرت ماجرى عليّ في ذلك النهار ميلاداً أو بعثاً جديدا، بمفاهيم جديدة رسَّخت القيم الّتي كنت أؤمن بها، بل أضافت إليها ماتعلّمته في ذلك اليوم.

كنت أعلم أنَّ الآخرين لن يتركونا هنا، وسوف يأتون لاصطحابنا إلى حيث الأمان، هكذا هي طريقتنا، لانتخلى عن جريح أو أسير مهما كان الثمن. كان عليَّ أن

افرح لقرب الخلاص بعد أن جنَّ الليل طالما أن تحقيق الحلم أصبح مستحيلا، ولكن فرحي كان ممزوجاً بخوف فضلّت الرحيل عليه. لقد كنت خائفاً على الآخرين، فدخولهم إلى المنطقة الّتي كنت متواجداً فيها لايخلو من الخطر إن ساروا فيه نهاراً، فكيف وهم سيدخلون اليها ليلاً، فماذا لو انفجر لغم وتضرر أحدهم بسببي؟ وحتى تمنِّي الرحيل لن ينفع في مثل هذه الحالة فهم سيأتون لأخذنا حتى ولو كنا جثثاً هامدة، ولن يتركونا في هذه الفلاة مهما كانت الصعوبات.

وسمعت أصواتهم التي كانت تقترب منّي شيئاً فشيئا، ثم نداءاتهم لي. ياإلهي.. ماأجمل هذه الأصوات الّتي تشتعل حنانا، وترتعش خوفاً عليّ، وما أحنَّ تلك الأكف الّتي حملتني برفق. كم شعرت بالأمان حينها، كطفل عاد إلى أحضان أمه. وكم شعرت بالراحة وأنا أستلقي على ظهري لأول مرة منذ ساعت حسبتها دهرا. لايستطيع أعظم شاعر أن يصور ذلك التواصل بيني وبينهم وهم يسيرون، تحملني سواعدهم القوية برفق خشية أن يتأذى جرح من جراحي.

إن هذا خير بلسم لجراح بدأت في تلك اللحظات، لحظات الإستسلام للأيدي الأمينة ، تطلق أنين آلامها الّتي كنت أكتمها عندما كان عليّ التفرغ لما هو أهمّ.

ولم يعد ينقصني شيء... بلى كنت لا أزال بحاجة

إلى لمسة أخرى لاتعادلها لمسة في الوجود، لمسة كف أمي الّتي انتظرها لتمسح جبيني، حينها فقط سافكر بالنّوم. ترى ماذا سأقول لها لأعزّيها وأمنحها الصّبر؟ واستعنت بتلك القوة الخفية لمواجهة مثل ذلك الموقف الّذي لم أعشه أبدا، قد حدث العكس، فها هي الّتي كانت تمسح جبيني بكفها، تهمس في أذني بكلمات التشجيع، ولم أفاجأ، فكما تعلمنا في مدرسة العمالقة، تعلمت هي أيضا في المدرسة نفسها، بل هي الّتي علمتني منذ ولدتني، الأحرف الأولى من ذلك الكتاب الّذي ابتدأت صفحاته تكتب في تلك الصحراء البعيدة، وكانت أولى كلماته (إقرأ).

كان أمامي الكثير الكثير، ولكنني سأواجهه بصبر وثبات، ففي خطّنا لامكان للضعف أو الإنهزام، لاسيّما وأنت تحاط بمن يقف إلى جانبك، ولايتخلى عنك أبدا. وكان عليّ أن أواجه زوجتي الّتي تركتها على فراش الوضع، وولدي، ذلك الإمتداد الطبيعي لاستمرار الحياة وعمارة الأرض، لقد ولدنا أنا وهو في يوم واحد، هو أطلّ على دنياه الجديدة بعد مخاض عسير، وعليّ أن أُطلَّ على دنيايَ الجديدة بعد تجربة صعبة، وعليَّ أن أعلّمه لغة الإنتظار، فعسى أن نشهد تحقيق الحلم الّذي أرانيه (أبو موسى)، فلابدّ أن يأتي ذلك اليوم الموعود، ليخطَّ فيه الغائب الصفحة الأخيرة من الكتاب الّذي كتبت

أولى صفحاته في الصحراء، والّتي لاشكّ ستكون النهاية لكل المهازل الّتي صنعها أولئك الّذين نسوا أن الله يمهل ولا يهمل، والبداية للدولة الكريمة، ألأعزة أهلها، والّتي سنكون فيها من الدعاة إلى طاعته والقادة إلى سبيله، ولنا فيها كرامة الدنيا والآخرة.

١٩٩٦/٦/١٣